

مباني العرب

حضارة العرب في مبانيها

مباني العرب في الجاهلية

لقد كانت الممالك العربية في زمن سطوتها وابان عظمتها معمورةً بالأبنية الباذخة والصروح الشامخة والمعازل الشهيرة والقصور الرفيعة والحصون المنبعة والآثار الفاخرة ، بما دل على حضارتهم في ذلك العهد وتقدمهم نحو العمران الذي كان خالة كل حضري يسكن البلدان الواسعة ويملك زمامها ، ومطمحاً لكل دولة تريد توسيع نطاقها وكيانها .

فمن أبنية الجاهلية التي دلت آثارها على سمو افكار مشيئتها ، وحضارة عصر مالكيها ، أبنية ثمود في الحِجْر ،

١ الحِجْر قرية صغيرة الى جنوبي دومة الجندل على جبال يقال لها الاثالب . والحجر هي المعروفة بمداش صالح في وادي القري بطريق الحج الى مكة . وبها كانت منازل ثمود . وتنزلها حجّاج الشام . وفيها قبر هاجر ام اسمعيل .

واطلاها وهي بعض بقايا منقوشة في الصخر تُعرف بقبر الباشا
والقلعة والبرج وقصر البنت. ثم حصن بركة^٢.
وقلاع طسم وجديس وهي المشقّر^٣ والمُسْتَقّ وسُموس.

١ وجد بعض المستشرقين على اطلال الحجر نقوشاً بالحرف النبطي وتاريخه حوالى
الميلاد وقرأوها فاذا كلها تبركات منقوشة على القبور . وفيما يلي مثال منها :
«هذا القبر بنته كُسمكُم بنت وائلة بنت حرم ، وكايبة ابنتها ، لانفسهن وذريتهن^٤
في شهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعبه ، فعسى ذو الشرى
وعرشه واللات وعمد ومنوت وقيس تلحن من يبيع هذا القبر او يشتريه او
يرهنه او يخرج منه جثة او عضواً او يدفن فيه احداً غيركم وابنتها وذريتها .
ومن يخالف ما كتب فيه فيلعنه ذو الشرى وهبل ومنوت خمس اعنات . ويعرّم
الساحر غرامة مقدارها الف درهم حارثي . الا من كان بيده تصريح منكم
او كايبة ابنتها . صنع وهب اللات بن عبد عبادة . « آه .

٢ حصن بركة ويُعرف ببركة خايس بين مكة والمدينة . قال ابن بطوطة :
بركة خايس هي في منبسط من الارض كثيرة حدائق النخل لها حصن متين في
قمة جبل وفيها عين فوّارة وقد سُرّيت باخايد الى الضياع ويقام هناك سوق .
٣ قال ياقوت : المشقّر قلعة من بناء طسم لها ذكر في ايام العرب . وجاء في لسان
العرب : انه حصن قديم بالبحرين .

٤ ذكر ياقوت ان المنق هو اعظم قصور الياهة من بناء طسم على اكمة مرتفعة .
والشموس قصر آخر فخم من بناء جديس محكم البنيان . وكان تلك البلاد بعد ان
باداها هجرت ثم عثروا على انقاضها .

وقصور اليمن مثل : بَيْتُ شُرُون^١ ورييدة^٢ وغمدان^٣ .

١ بينون اسم حصن عظيم كان باليمن قرب صنعاء وهو من بناء بعض التباينة ولذا ذكر في اخبار حمير واشعارهم .

وكان بينون من جهلة الحصون التي هدمها ملك الحبشة .

٢ رييدة او تلغم قصر باليمن . قال الهمداني : قصر رييدة من اقسام قصور اليمن . وهو قصر تلغم وليس من قصور اليمن في جبله بل هو سوي تلغم وماؤها اعظم مياه اليمن واغزرها . قال : وحدثني بعض اهلها انه وجد حجراً في تلغم مكتوباً عليه : بناه بريم واصبح هذا القصر بعد الاسلام داراً للعالمين .

٣ غمدان قصر بصنعاء اليمن بناه اليشرح بن الحارث احد ملوكها وجعله على اربعة اوجه : اهر وابيض واصفر واخضر ، وجعل على كل ركن من اركانه تمثال اسد من اعظم ما يكون من الاسد ، فكانت الريح اذا هبت الى ناحية تمثال من تلك التماثيل دخلت في جوفه فيسمع له زفير كزفير السباع . وكان يشتمل على عشرين طبقة غرفاً بعضها فوق بعض بين كل طبقتين عشرة اذرع . وكانت غرفه تسمى المحاريب وتحتوي على ما لا يوصف من الزخارف الجميلة وجعل غرفة الرأس العليا مجلساً بناها بالرخام الملون وجعل سقفها رخامة واحدة . وكان لها اربعة ابواب قبالة الصبا والديبور والشمال والجنوب ، وعند كل باب منها تمثال من نحاس اذا هبت الريح زأر . وكان فيها مقيل من الساج والابنوس . وفيها ستور لها اجراس اذا ضربت الريح تلك الستور تسمع اصوات الاجراس عن بعد . وكان يأمر بالمصاييح فتسرج في ذلك القصر فكان سائرهم يسمع كما يسمع البرق ، فاذا اشرف عليه انسان من بعض الطرق ظنه برقاً ولا يعلم ان ذلك ضوء المصاييح . وظل هذا القصر باقياً الى ان هدم في ايام الخليفة عثمان بن عفان كما قال المسعودي وشارح القاموس وغيرهما .

والخورنق^١ والسدير^٢ وسلاحين^٣ وشكر^٤ والزوراء^٥ وناعطا^٦

١ قصر بالعراق . ولم تعين الجهة التي بها هذا القصر . قال ابن السكيت وغيره انه قصر بظهر الحيرة بالعراق بنادى سنار وهو رجل رومي للنعمان الاكبر الاعور السائح بن امرئ القيس في عشرين سنة ، ولما فرغ من بنائه تعجبوا منه فقال : لو علمت انكم توفونني اجري لعمليته يدور مع الشمس . فقال له النعمان : انك لتتصدر على ما هو افضل منه . ثم امر به فالتقى من رأس الخورنق فهلك فضربت العرب بجزائه المثل .

٢ السدير قصر بالحيرة من منازل آل المنذر وابنتهم . كان للنعمان الاعور رب الخورنق . وقد ذكرت في العرب في اشعارها وضربت به الامثال في اخبارها . اما « بارق » فهو ماء بالعراق وهو الحد الفاصل بين القادسية والبصرة وهو من اعمال الكوفة كان فيه قصر حصين ينسب اليه .

٣ سلاحين حصن عظيم باليمن . وجاء في القاهوس : سلاحين حصن كان باليمن بني في ثمانين سنة . ولما ذكر في اشعار حمير واخبارها . وقد تقدم قول الحميري يذكر ما دخل على حمير من النذل :

ابعد بينون لا عين ولا اثر
وبعد سلاحين يمين الناس ابياتا

٤ قصر باليمن ايضا درست آثاره .

٥ قصر المنذر بن امرئ القيس في الحيرة الذي اشار النابغة الذبياني اليه بقوله :
وتسقى اذا ما شئت غير مصردي « بزوراء » في حافاتها المسك كارع

٦ هو محفد مؤلف من عدة قصور يلي نمدان في العظمة والشهرة . قال الهمداني في وصفه انه مصنعة بيضاء مدورة منقطة في رأس جبل ثنين بهمدان . وقال الهمداني بعد ان ذكر ما فيها من القصور : وما فيها قصر الا وتحتها

وصبر واح^١ ومارد والأبلق الفرد^٢ وقصور عديدة غيرها
كانت باليمن ككعبة نجران^٣ وحصن العنبر^٤ وحصن الزباء^٥

كريف (صهرج) للماء نجوف في الصخر فيتلع الماء الذي ينزل من السطح .
وفيه الاسطوانات العظيمة طول كل واحدة نيف وعشرون ذراعاً لا يحضن
الواحدة منها الا رجلان (فهو اشبه بما بنقره اهل اليمن الحديث من الانفاق
في الجبال لمرور المياه او قطر السبك الحديدية) .

١ قصر عظيم من اقدم ابنية اليمن ، ما بين صنعاء ومأرب ، ذهب قديماً ، وله ذكر
في اشعارهم .

٢ هما حصنان للسموأل بن عاديء اليهودي الغساني . قصدتها الزبء ملكة الجزيرة
فعبزت عنها . وكان وارد في دومة الجندل مبنياً من حجارة سود . والابلق الفرد
كان مشرفاً على تياء بين الحجاز والشام فيه آثار ابنية من لبن لا تدل على ما
يحكى عنه من العظمة والحصانة وهو خراب الآن . وانما قيل له الابلق لانه كان
في بنائه بياض وحمرة . وفي هذا الحصن تحصن سموأل لما اتى الملك الغساني ليأخذ
منه دروع امرئ القيس .

٣ كعبة نجران كانت قبة عظيمة في اليمن اطلق العرب عليها اسم كعبة نجران
لانهم كانوا يقصدون زيارتها في نجران كما يقصدون زيارة الكعبة ويحجون اليها .
٤ كان هذا الحصن مشيعاً بارض العراق بناه الملك امرؤ القيس بن النعمان .

٥ هما حصنان متقابلان بنتهما الزبء ملكة تدمر على الفرات وجمعت بينهما بنفق يمر
تحت النهر اعدته خوفاً يعل بها ، وكانت تسكن في احد حصنيها اكثر زمنها فاذا
جاء الصيف رحلت الى تدمر وسكنت في الرواق الاعظم في قصرها هناك . ولم تزل
بقايا الرواق الاعظم في مدينة تدمر تحفة الفن البيزنطي وقبة السباح البحتين الى
يومنا هذا .

وقصر حارب وقصر السويداء وقصور بني غسان في الشام
وضواحيها كقسطل البلقاء الذي يقول فيه كثير عزرة :

سقى الله حياً بالموقر دارهم

الى قسطل البلقاء ذات المحارب

واذروح^٢ من اعمال الشراة والجرباء بجانبها وصرح الغدير
والقصر الابيض^٣ والقلعة الزرقاء وقصر المشتى وقصر الفضاء وقصر
منار وقصر السويداء وحصن أبين^٤ وغيرها من الأبنية الباذخة
التي عبرت عليها السنون فغيرت جدتها ودكت معالمها فأصبحت
أطلاقاً يبحث عنها المستشرقون، وآخر من نقّب وبحث عن آثارها
الاستاذ « دوسو الفرنساوي » فقد جال في جبال حرران ووعورها

١ حارب والسويداء صرحان بناهما النعمان بن عمرو في ارض البلقاء بضواحي
دمشق .

٢ اذروح بلاد في اطراف الشام من اعمال الشراة ثم في نواحي البلقاء وعمان
ومجاورة لارض الحجاز . واعلمها تصحيف اذرع المسماة اذرععات .

٣ القصر الابيض هو قصر من قصور الحيرة ذكر في الفتوح انه كان بالرقّة
وجد على احد جدرانها مكتوباً « حضر عبد الله بن عبد الله . ولاسر ما كتبت
نفي وغيبت بين الاسماء اسمي في سنة ٥٠٣ » ويقول: سبحان من نجم عن عقوبة
اهل الظلم والجبرية . اخوتي ، ما اذلّ الغريب وان كان في صيانة ، واشجى قلب
المفارق وان كان آمناً من الحيانة ، واهور الدنيا عجيبة والاعمار فيها قريية .

٤ أبين مخلاف باليمن منه عدان . وفيه حصون وقلاع وبلدان . يقال سمي
بأبين بن زهير بن أبين بن حمير بن سبا .

في اللبغا والحراء والرحبة وجبل الصفا واكتشف كثيراً من الآثار واستدل منها على خط دفاع كان في أطراف هوران يفصل بينها وبين البادية. وهذا الخط كان مؤلفاً من عدة حصون من جملتها القصر الأبيض والنارة ودير الكهف والقلعة الزرقاء. وقد شاهد أنقاضها فرأى القصر الأبيض مبنياً في منبسط من الأرض مربع الشكل حوله سور فيه برج عال. وكان يتازع عن قصر النارة وغيره بنقوش جميلة مشتملة على صور طيور غريبة وخيول وفهود وأسود وبقرة وأفيال حتى الأسماك. وكثير غير هذه من الآثار التي أبدتها أيضاً الاكتشافات الحديثة كالصياحي والصروح والمعقل والحصون والمحafd والآطام والبروج والمدائن والقصور والقلاع والمصانع^١ منها مصنعة وحاظة^٢ وقلعة خدد^٣

-
- ١ المصانع جمع مصنع ، وهي المباني من القصور والآثار والحصون وغيرها .
 - ٢ مصنعة وحاظة هي قلعة واسمها سباع تشابه ناعصاً في القصور والكسوف (الصهاريج) وكريفها اسمه درداع مساحته ٦٠٠ ذراع في مثلها .
 - ٣ قلعة خدد معاندة لقلعة وحاظة بينها ساعة من نهار وفيها قصر عظيم يقصر عنه لوصف . والقلعة طريقان على باب كل طريق ماء . فالطريق الجنوبي عليه اكريف يسمى الوفيت منقور في الصخر الاسود عمقه في الأرض خمسون ذراعاً وعرضه عشرون وطوله خمسون محجوز على جوانبه بجدار يمنع السقوط فيه . والماء الثاني من شمال الحصن على باب الحصن الثاني في جوبة (حفرة) من صفا كالبئر مطوي بالبلاط ودرج ينزل فيه من رأس الحصن بالسرّج في الليل والنهار على مسيرة ساعة حتى يأتي الى الماء . ولا يعلم من يكون في اسفل البئر من هو فوقه .

ولا سيما ما وُجد في اليمن مهد الملوك الاولين من آثار المباني
الرفيعة والاعمدة الضخمة والتماثيل الجميلة والتحف البرونزية
والصور الرائعة في النقش البارز التي ينمُّ إحكام صنعها عن
حضارة بلاد العرب القديمة فضلاً عن تقدمهم في الهندسة وفن
العمارة ومهارة البناء من قطع الجبال كما قطعوا باب عدن^١
وبينون^٢ وحصن غراب^٣ بما دل على ان العرب كانوا أحذق
الامم في الصناعات وأمهريهم في البناء^٤. وقد نقل الهمداني صاحب

١ باب عدن هو شق في جبل محيط بموضع عدن في ساحل لم يكن له طريق الى
البر الا للرجل الواحد اذا ركب ظهر الجبل، فقطعوا باباً من الجبل في عرضه
حتى سلكته الدواب والحمايل وغيرها .

٢ بينون ايضاً اسم جبل قطعه بعض ملوك حمير حتى اخرج منه سبيلاً من بلاد
وراءه الى ارض بينون .

٣ هو بقية قلعة منحوتة في الصخر عليها نقش بالسنند لغاتح اليمن الحبشي ذكر فيه
خبر فتحه .

٤ وكان سكان جنوب الجزيرة الاقدمون من مهرة البنائين . وعمائرهم الشاحنة
تدل على تقدم فن البناء عندهم . فقد نحتوا كتلاً من الرخام نحتاً بديعاً وركبوا
بعضها فوق بعض بمهارة ودقة بحيث يخيل للناظرين اليها انها كتلة واحدة، ولم يكونوا
يستعملون الاسمنت ، ولكنهم كانوا ينحتون في كتل الرخام تجاويف ثم يضمون
بعضها الى بعض بدقة واحكام تام بحيث يتعذر على المرء ان يدخل ابرة بين هذه
الكتل الحجرية التي تبدو كأنها حديثة الصنعة . واما الاعمدة فكانت مربعة الشكل
ولكل منها في اعلاه واسفله وتد بارز بحيث يمكن ادخاله في تجويف خاص به
من كلا الطرفين ، ثم يصب عليه معدن الرصاص المصهور بدلاً من الاسمنت .

كتاب جزيرة العرب وكتاب الاكليل « الذي هو أجمع كتاب في وصف محافد اليمن ودفائنها ومساندها والآثار الحميرية كسد مأرب » ما شاهدته من انقراض تلك القصور وأيد كلامه مؤرخو الفرنجة كأرنو وهالوي وغلازر النمساوي الذين شاهدوا نظيره تلك الانقراض فوجدوا ما كتبه عنها صحيحاً وما سرده عنها صادقاً .

١ هو اعظم سدود بلاد العرب باليمن واشهرها . والسدود جدران ضخمة كانوا يقيمونها في عرض الاودية لحجز السيول ورفع المياه لري الارضين المرتفعة كما يفعل اهل التمدن الحديث في بناء الخزانات ، كخزان اصوان وخزان اسيوط بمصر ، وانما عمد العرب الى بنائها لقلة المياه في بلادهم مع رغبتهم في احياء زراعتها فلم يدعوا وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء الا حجزوا سيله بسدٍ فتكاثر السدود بتكاثر الاودية حتى تجاوزت المئات . وكانوا يسمون كل سد باسم خاص به او بالاضافة الى بلده كسد مأرب هذا .

المساجد والجوامع الاسلامية

ومن المباني الفخمة التي تدلُّ على حضارة وعمران العالم العربي في الشرق المعابد والمساجد والجوامع العديدة التي رُمِّسها وشيِّدتها ملوك الجاهلية والاسلام لاقامة الصلاة فيها وتتميم الفروض الدينيَّة في كل بلدٍ تزوره وانتشرت عباداتهم فيه .
واشهر هذه الاماكن : « مكة » وتسمَّى ام القرى - والبلد الحرام - والبلد الأمين - وامّ الكورة - والمشرقة . ويقال لها ايضاً بكَّة بالباء على البدل . وقيل بالباء البيت وبطن مكة . وباليم ما حول البيت . وهي مهد الديانة الاسلامية تقع في قسم الحجاز الجنوبي . ومرفأها جدَّة على البحر الاحمر . ومسافة البعد بينهما ٨٠ كيلومتراً . ومكة غير مسورة ولكنها محيطة بثلاث فلاع قويَّة . وهي ممتدَّة في وادي قاحل على مسافة ٢٥٠٠ متر طولاً و ٥٠٠ او الف متر عرضاً وتحيط بها من كل الجهات جبال وآكام جرداء علوها من ٨٠ الى ٢٥٠ متراً ، حرّها شديد وهوائها جاف وتربتها ناشفة . وماء مكة يوردها من جبالٍ في شرقها بواسطة قناة بنتها زبيدة زوجة هارون الرشيد . وطول هذه القناة ٤ كيلومتراً .

أهم الأماكن الدينية فيها

المسجد الحرام : أو الحرم الشريف في وسط مكة . في دوائره الأربعة قباب على أعمدة من المرمر والحجر النحت . بناؤه متين على سبع مآذن ، صحنه كبير واسع طوله ٤٠٤ أذرع وعرضه ٣٠٤ أذرع . وله ثلاث بلاطات محدقة به من جهاته كلها ومنتظم بعضها ببعض . فوقها سماوية مذهبة وحافاتها على عمود رخام بيض عددها في طوله من الشرق الى الغرب مع وجه الصحن ٥٠ عموداً وفي عرضه ٣٠ عموداً بين كل عمودين قدر عشرة أذرع . وجملة عمد المسجد ٣٣٤ عموداً طول كل عمود منها ١٠ أذرع ودوره ٣ أذرع . والمذهبة من رؤوس العمود ٣٣ رأساً . وسور المسجد كله من داخله مزخرف بالفسيفساء وابوابه على عمد رخام وهي ٢٣ باباً لا غلق عليها ، يصعد عليها في ادراج عديدة .

الكعبة : أو بيت الله الحرام . بناء بوسط المسجد مربع الشكل تقريباً طوله اثنا عشر متراً في عشرة امتار وعشرة سنتيمترات عرضاً فضلاً عن عرض الشاذوران « اي الجدار المحيط بالبيت » وارتفاعه ١٥ متراً وهو مبني من حجارة الجص الكبار الصماء الزرقاء الغير المنحوتة ، ويستدير به من اسفله

الشاذوران كدرجة سلّم . وباب الكعبة مرتفع عن الارض
مترين . وعتبته من الفضة وكذلك قفل الباب . وتحت العتبة
العليا عتبة مذهبة . ومصراعا الباب من ساج « شجر هندي
اسود لا تكاد الارض تبليه » غليظ مصفّح . ظاهرة بالذهب
وباطنه بالفضة . يُصعد اليه بدرج من خشب مصفح بالفضة ويدخل
منه الى جوف البيت . وهو غرفة واسعة مزينة جدرانها بخطوط
عربية ومُشاراة بمصابيح ذهبية . وبلاطها من رخام مرصوف
بالفسيفساء . وفيها ثلاثة اعمدة من العود الماوردي قطر الواحد
منها خمسة وعشرون سنتيمتراً . وبسقفه هدايا من الجواهر الثمينة
معلقة من عهد الخلفاء . وحيطانه مكسوة بالاطلس الاحمر
وبدائر جهاته الاربع حلق لربط الكسوة من الخارج حتى تنسدل
على جهاته الاربع من الاعلى الى الاسفل . وهي من الحرير
الاسود من نسج مصر تحمل اليه كل عام .

وفي الركن الشرقي الجنوبي من الكعبة بارتفاع متر ونصف
عن الارض :

الحجر الاسود : الذي يتوجب على الحجاج لثمه باحترام
قبل طوافهم حوله ، وهو على رأس صخرتين من وجه الارض ،
قد نحت من الصخر مقدار ما ادخل فيه الحجر وأشفت الصخرة
الثالثة عليهما مثل اصبعين . والصخر امس مجزّع حالك السواد

في قدر الكف المحشية . وهو مصون في صندوق من الفضة صنع له سنة ١٢٩٠ ، وفي هذا الصندوق فتحة مستديرة قطرها سبعة وعشرون سنتيمتراً يُرى منها الحجر ويُستلَم « اي يلمس باليد او يقبل » وقد صار مقعراً كطاسة الشرب « عن كتاب دليل الحج لمحمد صادق باشا » . ويزعمون ان الكعبة بناها آدم ابو البشر ثم ابراهيم بمساعدة ولده اسماعيل « وقد خربت وجُددت مراراً ثم اعاد بناءها ابن الزبير سنة ٦٨٤ ثم هدمتها الامطار سنة ١٠٣٩ فجددها السلطان مراد خان الرابع » وان الحجر الاسود وهبه الملاك جبرائيل لاسماعيل وكان حينئذٍ ناصع البياض وقد سوّد من كثرة آثام البشر الذين كانوا يقبلونه . وكانت الكعبة قبل الاسلام معبداً للقبائل العربية التي كانت تضع فيها اصنامها البالغة ٣٦٠ صنماً فحطّمها النبي محمد وكرّسها معبداً للاله الواحد الحق .

المسجد النبوي : بلاطته في قبلته معترضة من الشرق الى الغرب في كل صف من صفوف عمدتها ١٧ عموداً ، ما بين كل عمودين منها فجوة كبيرة واسعة . والعمد التي في البلاطات القبليّة بيض مخصّصة شاذّة جدّاً . وسائر عمد المسجد رخام . والعمد المخصّصة على قواعد عظيمة مربعة ورؤوسها مذهبة عليها نجف منقشة مذهبة . ثم السماوات على النجف منقشة مذهبة

ايضاً . وحنايا المسجد كلها بما يلي الصحن مشدودة من جهاتها
الاربع الى مناكب العمد بنحش منقش . وللمسجد ٣ منارات
اثنان للجنوب وواحدة للمشرق . وحيطان المسجد كلها من داخله
مزخرفة بالرخام والذهب والفسيفساء اولها وآخرها . وله ١٨
باباً عتبها مذهبة . وهي ابواب عظيمة لا غلق عليها . اربعة
منها في الجنوب وسبعة في الشرق وسبعة في الغرب . وقباع
المسجد كله مفروش بالحصى وليس له حصر . ووجه سور
المسجد كله من خارج منقش بالكذان وكذلك الشرفات .

القبر النبوي : بشرفي المسجد في آخر مسقفه القبلي مما يلي
الصحن بينه وبين السور الشرقي مثل ١٠ اذرع قد حطر حوله
بجائط بينه وبين السقف مثل ٣ اذرع وله ٦ اركان . وليس
بازار رخام اكثر من قامة وما فوق القامة مخلّق بالخلوق .
وعلى ظهر المسجد حذاء القبر حجر محجوز لئلا يمشى عليه .

قبو الميخواب : وفيه دارات بعضها مذهبة وبعضها خميرية
وسور . وتحت القبو صفة ذهب منقشة تحتها صفائح ذهب مشنة
فيها جزعة مثل جمجمة الصبي الصغير مسطرة ثم تحتها الى الارض
ازار رخام مخلّق بالخلوق .

المقصورة : وعن يمين المحراب باب يدخل منه الإمام
ويخرج . وعن يساره باب صغير مشطرج قد سُدَّ بعوارض من

حديد . وبين هذين البابين والمحراب مشى مسطوح لطيف . ومن
السور الغربي لاصقة بالباب الى الفصل اللاصق بالسور الشرقي
ومن هذا الفصل يصعد الى ظهر المسجد . وهي قدسٌ مختصرة
العمل لها شرفات واربعة ابواب . وخارج المقصورة قريب منها
عن يسار المحراب سربٌ في الارض يهبط فيه على درج يفضي
منها الى دار عمر بن الخطاب .

المنبر : عن يمين المحراب في اول البلاط الثالث من المحراب
في روضة مفروشة من الرخام محجوز حولها به وله درج .
وهو مختصر ليس فيه من النقوش ودقة العمل ما في منابر
هذا الزمان .

قصر الخضراء في دمشق الشام : هو اول قصر اعتنى
ببنائه معاوية بن ابي سفيان اول خليفة اموي ، كانت جدرانها
منزلة بالفسيفساء واعمدته من رخام وذهب وسقوفه مزينة بالذهب
المرصع بالجواهر . وكان فيه قاعة كبرى فخيمة كان يجلس فيها
الخليفة وحوله سادات قریش وأميّة وامامه يقف الشعراء
واصحاب الحاجات . وجعل فيه النافورات الجميلة العديدة
تخرج من قلبها المياه . وقد احاطه بمحاذق غناء فجاء آية في
الجمال والجلال . ودعي قصر الخلافة لان الخليفة جعله مقراً له
ولمن يجيء بعده .

الجامع الاموي في دمشق الشام : هو من اشهر جوامع الاسلام . انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك لكنه توفي قبل ان يتم بناؤه فآتمه من بعده اخوه سليمان ، وبالغ في التأنق فيه . جدرانها منزلة كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء ، وكان مبلغ النفقة فيه احد عشر الف دينار ومئتي الف دينار .

ذراعهُ في الطول من الشرق الى الغرب مئتا الف خطوة وهما ثلاث مئة ذراع ، وذراعهُ في السعة من القبلة الى الشمال مئة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهي مئتا ذراع . يتصل بقبليه ثلاث بلاطات مستطيلة من الشرق الى الغرب سعة كل بلاطة منها ثمانى عشرة خطوة والخطوة ذراع ونصف . وقد قامت على ٦٨ عموداً منها اربع وخمسون سارية وثمانى ارجل جصية تتخللها ، واثنان مرخمتان ملصقتان بالجدار الذي يلي الصحن ، واربع ارجل مرخمة مرصعة بفصوص من الرخام ملوثة . واعظم ما في هذا الجامع « قبة الرصاص » المتصلة بالمحراب . وهي عظيمة الاستدارة قد استقل بها هيكل عظيم هو غاربها يتصل من المحراب الى الصحن يشبهونها بنسر طائر كأن القبة رأسه ، والغارب جؤجؤه ، ونصف جدار البلاط عن يمين والنصف الثانى عن شمال جناحاه . وسعة هذا الغارب من جهة الصحن

ثلاثون خطوة . وعدد شمسيات الجامع الزجاجية المذهبة الملونة
اربع وسبعون والبلاط المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات من
ثلاث جهات على اعمدة . وعلى تلك الاعمدة ابواب مقوسة
تقلها اعمدة صغار تطيف بالصحن كله .

وفي الصحن ثلاث قباب اكبرها في الجانب الغربي منه .
وهي قائمة على ثمانية اعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج مزخرفة
بالفصوص والاصبغة الملونة وعليها قبة رصاص كأنها التنور
العظيم الاستدارة . وقبة اخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة
مشمئة من رخام قد ألصق ابدع الصاق قائمة على اربعة اعمدة
صغار من الرخام وتحتها شبك حديد مستدير وفي وسطه ابواب
من الصفر يرمي الماء علواً فيرتفع وينثني كأنه قضيب من لُجين .

والقبة الثالثة في الجانب الشرقي قائمة على ثمانية اعمدة على
هيئة القبة الكبيرة . وكان هذا الجامع ظاهراً وباطناً منزلاً كله
بالفصوص المذهبة والزخارف البديعة الصنعة . وكان فيه ستاية
سلسلة ذهبية لتعليق القناديل نقلها الخليفة عمر بن عبد العزيز الى
بيت المال .

وقد ادركه الحريق مرتين فتهدم وجدد وذهب اكثر
رخامه .

واسلم ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها . ومحرابه

من اعجب المحاريب الاسلامية حسناً و غرابة صنعة تتقد ذهباً كالماء .
وقد قامت في وسطه محاريب صفار متصلة بجداره تحفها سورريات
مفتولات فتل الاسورة كأنها مخروطة لم يُر شيء اجمل منها وبعضها
احمر كأنه مرجان .

وكان في جانب هذا الجامع كنيسة للنصارى تُعرف بكنيسة
مار يوحنا ، فهدمها الوليد وادخلها الجامع . وفي سنة ١٣١٠ هـ
اضطربت النار فيه فالتهمت ما كان فيه من الآنية الذهبية
والفضية ، وما كان من الطنائف الثمينة وغيرها مما قدر بالوف
من الليرات الذهبية .

الجامع الاقصى في اورشليم : هو الذي بناه الخليفة عمر بن
الخطاب في المحل الذي كان مهنيماً فيه هيكل سليمان بن داود ملك
اسرائيل . وهو من جوامع الاسلام الفخمة .

جامع القاهرة : الذي شيده احمد بن طولون في مصر .
الجامع الأزهر : الذي بناه في مصر جوهر بن عبد الله الرومي
المغربي مولى المعز لدين الله العبدي سنة ٣٥٩ - ٣٦١ هـ . وقد
جعل هذا الجامع مدرسة للعلم في عهد العزيز بالله بن المعز الفاطمي .
وكان الحاكم بن العزيز جعل فيه تنوراً من الفضة وسبعة وعشرين
قنديلاً من فضة ايضاً . وقد بنى فيه الملك الاشرف قانسوه
الغوري مدينة كبرى هي اعلى ماذن الأزهر . وفضلاً عن الاعمدة

القائم عليها صحن الجامع ففي الأزهر اليوم ٢٦ رواقاً و ١٥ حارة. ويدرس فيه ١٩١ مدرساً. ويدرس فيه أكثر من ثمانية آلاف طالب.

أيا صوفيا : كنيسة رومية بيزنطية مركزها القسطنطينية بناها الملك الروماني يوستنيانوس. وهي تُعدُّ بفخامة بنائها من عجائب الأرض. وقد سماها ايا صوفيا لانه اقامها ذكراً للحكمة الالهية، واتخذها السلطان الغازي محمد الثاني جامعاً يوم فتح القسطنطينية. اما هيئة البناء فعلى شكل مربع طوله ٧٥ متراً و ٦٤ سنتيمتراً ما بخلا حنية الهيكل وعرضه سبعون متراً. وفوق هذا المربع القبة العظمى وقطرها عند فوهتها ٣١ متراً و ٤٨ سنتيمتراً. وهي مستندة الى اربع حنايا بتوازي سقفها. وقد بُني على الحنيتين اللتين على يمين الداخل وشماله شبه نصف قبة. وتحت نصف القبة نصف قبة اخرى من الجهتين. وهذان النصفان اصغر من النصفين الاعليين يستندان الى عمدة فينجم من ركوب هذه القباب على بعضها منظر لا عديل له. وترى للبناء هيئة رشيقة غاية في الحسن والجمال. ويظيف بالبناء سورٌ فكان هذه الكنيسة مدينة. وابوابها ثلاثة عشر باباً. ولها حرم هو نحو ميل، عليه باب كبير ولا يمنع احد من دخوله. وهو شبه مشور مسطح بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة، لها حائطان مرتفعان نحو ذراع

مصنوعان بالرخام المجزّع المنقوش . وعلى باب الكنيسة سقائف
يجلس بها خدامها الذين يوقدون سُرجها ويفلقون ابوابها .
وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب وحلقته من الذهب
الخالص .

المسجد الجامع : من اعظم آثار الامبراطورية العربية في
المغرب هو المسجد الجامع الذي بناه في قرطبة بالاندلس عبد
الرحمن الاول لاشتهاره :

١ - بأذنته الطويلة الفضة البالغ طولها الى مكان الأذان
٥٤ ذراعاً ، والى اعلى الرمانة الاخيرة ٧٣ ذراعاً ، وعرضها
في كل تربع ١٨ ذراعاً .

٢ - بحرابه المصنوعة جدرانها من الفسيفساء الموهبة
بالذهب .

٣ - بابوه التسعة المصفحة بالنحاس الاصفر .

٤ - باب مقصورته المصفح بالذهب الخالص .

٥ - بسقفه القائم على ١٢٩٣ سارية من الرخام والمعلقة فيه
الثريات العديدة المصنوعة واشهرها « التنور النحاسي » الذي كان
يحمل الف مصباح .

دور العرب وقصورهم في بغداد

ومن القصور التي تتجلى فيها فخامة العمران في عاصمة الرشيد : « قصر التاج » الذي شيده المعتضد بالله في الجانب الشرقي من بغداد . و « قصر الثريا » البالغ طوله كما قيل حوالي ثلاثة فراسخ . وقد روى المسعودي انه انفق على بنائه اربعمائة الف دينار . وقد وصلته المعتضد بالله بقصر آخر يملكه بسر داب طوله ميلان كانت تتنزه فيه جواريه وغوانيه . ووصف ابن المعتز قصر الثريا بقوله :

سلمتَ أمير المؤمنين من الدهرِ

فلا زلتَ فينا باقياً واسع العمرِ

حلتَ الثريا خير دارٍ ومنزلٍ

فلا زال معموراً وبورك من قصر

جنانٍ وأشجارٍ تلاقَت غصونُها ،

وأورقنَ بالأثمارِ والورقِ الحضرِ

ترى الطير في اغصانِها هواتفاً

تَنَقَّلُ من وكرٍ لهنَّ الى وكر

وبنيان قصرٍ قد علت شرفاته
كمثل نساءٍ قد تربعنَ في أزرٍ

وانهار ماء كالسلاسل فُجِّرت
لترضع اولاد الرياحين والزهر

اما القصر الذي تاهت به بغداد على معظم العواصم الاوروبية وقد جاء وصفه في معجم ياقوت فكان يسمى : « دار الشجرة » شيده المقتدر بالله بن المعتضد ، فهو قصر منيف اشتهر بقاعة كان فيها شجرة مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة لها ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكلمة بانواع الجواهر على شكل الاثمار . وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة اذا مرّ الهواء عليها ابانت عن عجائب من ضروب الصفيير والهدير . وفي جانب الدار عن يمين البركة قنابل خمسة عشر فارساً ومثلها عن يسار البركة قد لبسوا انواع الحرير مقلدين بالسيوف وفي ايديهم المطارد « الرماح » يتحركون على خطّ واحد فيظن الناظر اليهم ان كل واحد منهم يقصد صاحبه .

ثم « دار المعزية » وهو القصر المشهور الذي اقامه معز الدولة من آل بويه عندما صار الحكم اليهم . فقد انفق على

هذه الدار ما لا يقل عن مليون من الدنانير واشتهرت بسقوفها المموجة بالذهب .

اما اليوم فلم يبقَ في بغداد اثر لهذه القصور لانها لم تكن مبنية بالحجارة الصلبة كما في مصر والشام والاندلس بل كانت مشيدة بالطوب اي الطين المشوي .

دورهم في مصر

ومن آثار الفاطميين في مصر القصر الذي بناه احمد بن طولون « في القطائع » والذي هو مفخرة من مفاخر الفن العربي . وقد اشهر هذا القصر بميدانه الفسيح الذي جعله خمارويه ابن احمد بن طولون جنة عامرة بانواع الاشجار المثمرة والرياحين والزهور واصناف النخيل .

قصور العرب وحصونهم في الأندلس

ان ما تفننن به ملوك الأندلس في بناء القصور والحصون وما غالوا في زخرفتها واتقان فنّها هو أثر خالد وآية من الآيات التي كان يتهافت الناس من جميع أقطار الارض على زيارتها ومشاهدة ما ابتكرته المخيلة العربية من فن لا يزال موضوع اعجاب الفنانين الكبار .

فشيّد بنو أمية فيها قصوراً ومساجد عظيمة اشهرها « القصر الكبير » الذي شيّده مؤسس الدولة الاموية في قرطبة عبد الرحمن الداخل المعروف « بصقر قریش » في أواسط القرن الثاني للهجرة واتمه من بعده خلفاؤه وبنوا فيه أكثر من اربعمائة دار . وذكر المقرئ صاحب كتاب نفح الطيب ان الخلفاء بالغوا في زخرفة هذه الدور وانشأوا فيها البرك والبحيرات والصحاريح والأحواض ، وجابوا اليها الماء في أقنية من رصاص على مسافة بعيدة من الجبال حتى أوصلوه اليها ووزعوه فيها وفي ساحاتها ونواحيها تؤديها الى المصانع صوراً مختلفة الأشكال من الذهب الابريز والفخة الخالصة والنحاس المموّه الى البحيرات

الهائلة والبرك البديعة والصحاريح القريبة في احواض الرخام
الرومية المنقوشة ينصب فيها الماء من أنابيب الذهب او الفضة
بصور الحيوانات الكاسرة أو الصور الجميلة على أشكال بديعة .
وكان هذا القصر الكبير يحتوي على قصور صغيرة أشهرها الكامل
والرستق والبديع والمعشوق والمبارك والمجدد والحائر . وقد
شاهد اجماد بني مروان وانتصاراتهم في المغرب كما أقيمت في
ساحاته وميادينه الاستعراضات الهائلة للجيش العربي وشبابها
الناهض . ثم « القصر الزاهر » الذي بناه ايضاً عبد الرحمن الداخل
على نهر قرطبة باكمل الاتقان والفخامة وجعل امامه « البهو
الكامل » الجميل .

القصر الزاهر : وهو من اجمل ابنية القصر الكبير . له
واجهة عليها نقوش كالوشم على المعصم في اشكال جميلة بين
اقواس منحوتة باشكل هندسية عربية تتخللها الأبواب في الاسفل
وتزينها في الطبقة العليا النوافذ والاحنية والقناطر كالرواق
القائم على اساطين الرخام وعلى تيجانها نقوش وكتابة . وفوق
التيجان الاقواس قد تقطعت سقوفها مربعات متداخلة ورسمت
فيها الآيات والدعوات حفرأ او تصويرأ . وعلى افاريز الشبايك
ابيات من الشعر مذهبة . والافاريز من الشكل المقرنص . وتنتهي
تلك الطبقة بطنف بارز هو امتداد السطح الى الخارج وعليه نقوش

في غاية الجمال، وحول التوافد زجاج ملون مصنوع على اشكال هندسية في اجمل زينة .

و « قصر الناعورة » غربي قرطبة و « قصر الروضة » اللذان بناهما عبد الرحمن الناصر وجلب اليهما الماء من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوقفوا عليه . ثم اخذ في بناء المتنزهات فاتخذ ميناء الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من اعلى الجبل على بعد المسافة وجرها في اقنية غريبة الصنعة . وقد وصفها المقري في كتاب نفع الطيب فقال : « واكمل الناصر بنيان القناة الغربية الصنعة التي اجراها وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة في المناهر المهندسة (وهي خروق في الحصن نافذة تجري منها المياه) وعلى الحنايا المعقودة يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة من جبل قرطبة الى قصر الناعورة ويصب في بركة عظيمة عليها اسد عظيم الصورة بسديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد ابهى منه في ما صور الملوك في غابر الدهر ، مطلي بذهب ابريز ، وعيناه جوهرتان لهما وبيص شديد يجوز الماء الى عجز هذا الاسد فيصبه في تلك البركة من فيه فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره فتستقي من مجاهد جنات القصر على رحبها ويستفيض على ساحاته وجناته ويمد النهر العظيم بما فضل منه ، فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي

يصب فيها من اعظم آثار الملوك لبعده مسافتها واختلاف
مسالكها وفضامة بنيانها وسمو ابوابها التي يرقى الماء منها
وينصب من اعاليها . »

و « قصر الزهراء » الشهير الذي شيده ايضاً الملك الناصر
بمدينة الزهراء بالانندلس على بعد اربعة اميال وثلاث من قرطبة .
وكان متمناً في الجلالة والفضامة والرواء، يقولون انه لم يدخل اليه
احد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة الا وكاهم قطع انه لم
ير له شبيهاً بل لم يسمع به بل لم يتوهم انه كونه مثله حتى انه
كان من اعجب ما يؤمل القاطع الى الاندلس في تلك العصور النظر
اليه والتحدث عنه . وكانت مجالسه مبلىة بافخر انواع الرخام
وسقوفها مغطاة بالذهب الابريز وابوابها من خشب الارز منقوشاً
نقشاً يحير الالباب، وعمدتها غاية في الاحكام والاتقان كأنها
أفرغت في قوالب . وكان بها برك عظيمة يجري منها الماء الصافي
الى ابدان تماثيل غريبة الشكل والصنعة تكاد المخيلة تعجز عن
تصورها . وحمل اليها الرخام من اقطار الغرب وأدخل فيها
٤٣٠٠ سارية . واهدى ملك الفرنج ٤ سارية رخام . واما
الوردي والاخضر فقد جلب من افريقية، والحوض المذهب جلب
اليها من القسطنطينية .

وأشرف هذه المجالس وابهاها المجلس الذي كان يسمى :

« قصر الخلافة » وصفه المقرئزي فقال : وكان سقفه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه المتنوعة اجناسه ، وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك . وجعلت في وسطه اليتيمة التي اتحف الناصر بها لاون ملك القسطنطينية . وكانت قرآمد هذا القصر من الذهب والفضة وفي وسطه بركة عظيمة مملوءة بالزئبق . وكان في كل جانب من المجلس ثمانية ابواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب واصناف الجواهر قامت على سوارٍ من الرخام الملوّن والبلور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نوراً يأخذ الابصار . وكان الناصر اذا اراد ان يفرّغ احداً من اهل مجلسه او ما الى احد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كالعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس ان المحفل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك .

و « قصر الشراحيب » الذي كان مبنياً في مدينة شلب من مملكة قرطبة . وكان قصراً مشهوراً وفيه يقول المعتمد بن عبّاد الاندلسي :

وسلّم على قصر الشراحيب عن فتى
له ابداً شوق الى ذلك القصر

و « قصر السرور ومجلس الذهب » بُنيت في مدينة سرقسطة
وفيها يقول ابن هود :

قصر السرور ومجلس الذهب
بكما بلغت نهاية الطرب

و « قصر طليطلة » المشهور شاهه المأمون بن ذي النون
بمدينة طليطلة وجلب له أهل الصناعة والمهندسين والمصورين .
وصنع في وسطه بحيرة . وفي وسط البحيرة قبة من زجاج
ملون منقوش بالذهب . وجلب الماء على رأس القبة فكان الماء
ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطاً بها ويتصل بعضه ببعض
فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من
الجري والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصله .
وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع . وفيه قال
ابو محمد البصري :

شمسية الانساب بدرية

يحار في تشبيها الحاطر

كأنما المأمون بدر الدجى

وهي عليه الفلك الدائر

و « قصر الحمراء او القلعة الحمراء » الذي شيده ابن

الاحمر سنة ١٢٤٨ م وقد احتفظ به الزمن للعرب . فهو لا يزال كعبةً للفن العربي يحجُّ إليه الاثريون من كل صوب ليشاهدوا حوض السباع المشيد في وسطه تماثيل اسود تقذف المياه من افواهاها .

فهذا الحصن يشرف على مدينة غرناطة بهيبةٍ وجلال . وهو محصن على اقوى منوال . أنشئ في القرون المتوسطة . يسع ٤ الف رجل . داخله آثار قصر مغربي عربي وهو محاط باشجار وحدائق . وتلك البقعة الجميلة تتضمن كل ما كان يحتاج اليه امرء غرناطة من اسباب الامان والحظ :

وفي الحمراء دارانٍ معتبرتان احدهما دار الاسود وهي دائرة عظيمة من القصر سميت بذلك من عينِ قائدة على ١٢ اسداً من المرمر وهي بتمامها مبنية من الرخام والمرمر ومزينة باحسن انواع الزينة .

والثانية دار ابن سراج وهي اجمل منها وسقفها من خشب الارز مرصع بالعاج والصدف والفضة . والحيطان مزينة باجمل الزينة ومزخرفة على احسن طريقة . والوانها لا تزال على حالتها اللامعة الاصلية . والنقوش لا تزال كاملة بعد ان مضى عليها اكثر من ٥٠٠ سنة .

وحول هاتين الدارين قاعات فاخرة مزينة بالاساطين والمنازل

ذات الطرارة والحدايق اللطيفة والماء العذب الجاري . وفي
الواجهة الخارجية 'طنف بديعة تطل على البرية . وفي احدى
الدور العظى قاعة جليلة تعلوها قبة . وكل حيطان القلعة اداخلية
مزينة بالنقوش والفسيفساء .

والقباب مصنوعة على هيئة نخاريب النحل . واما الخارجية
فمنظرها حربي وليس فيها النظام الهندسي القديم . وفيها ايضاً
صور تشخص الصيد والحيوانات .

لكن بعد فتح ملوك قسطيالة لغرناطة حصل بالقصر على التوالي
تشعث في اماكن مختلفة منه . وقد جعل كارلوس الخامس
بعض اقسام هذه القلعة الاصلية على نسق حديث لكي يتخذها
منزلاً له .

ونهبها فيما بعد حكام مختلفون . وهدم الفرنسيون ثمانية من
ابراجها وقد حاولوا دكها جميعها الى اساساتها . وهي الآن متخذة
حصناً بعد ان كانت مقاماً للملوك . محيطها نحو ثلاثة ارباع الفرسخ .
وسورها الاصيلي باقى الى الآن ، وعليه الابراج .

وهناك ايضاً مع القلعة كنيسة داخل السور ودير قديم اتخذ
الآن منزلاً للعساكر وعدة من المساكن .

وقصر ابتداء ببنائه شارلكان في موقع قصر الشتاء ايام المغاربة ،
فانه هدمه وامر ببناء هذا القصر مكانه . وهذا المجل لم يتم وهو

الآن محلّ للاسلعة والمدافع .

وبعض الابراج والمخات القديمة قد اتُخذت سجوناً وبيوت
تصليحات وغير ذلك . ولا تزال هذه القلعة اثرًا مؤثراً يذكر
المؤرخين بحوادث الاندلس ونكبات عربها . وفي الحمراء يقول
الرّعي :

رعى الله بالحمراء عيشاً قطعته
ذهبتُ به للانس والليل قد ذهبُ
ترى الارض منها فضة فاذا اكتست
بشمس الضحى صارت سبيكتها ذهبُ

سور قرطبة وجسر نهرها الفخيم : ويحيط بهذه القصور
سورٌ له بضعة ابواب ، منها بابان في الجنوب يطلان على النهر هما
باب الجنان والسطح ، وواحد في الشمال اسمه باب قورية وآخر
في الشرق هو باب الجامع . والآخر في الغرب ويقال له باب
الوادي .

وفوق النهر جسر فخيم « كوبري » يصل بين قرطبة وارباضها
الجنوبية ويقال له قنطرة قرطبة طوله ٨٠٠ ذراع وعرضه عشرون
ذراعاً وارتفاعه ٦٠ ذراعاً وعدد قناطره ١٨ قنطرة . وفوقه ابراج

عددتها ١٩ برجاً، وهو يُعدُّ من مفاخر قرطبة ولا يزال الى اليوم من آثارها الفخمة .

مسجد قوطبة : ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير . ولم يكن في بلاد الاسلام اعظم منه ولا اعجب بناءً . وكان في مكانه كنيسة للنصارى شاطروهم عليها المسلمون عند الفتح كما فعلوا بالجامع الاموي بدمشق ثم أخذوا بتوسيعه والزيادة فيه حتى بلغت سعته في ايام الناصر ٢٢٥ ذراعاً في ٢٠٥ اذرع . واغرب ما فيه المئذنة ، لم يكن في مساجد المسلمين مئذنة تعدلها ، طولها الى موقف المؤذن ٥٤ ذراعاً والى اعلى الرمانة ٧٣ ذراعاً وعرضها ١٨ ذراعاً .

مكتبة قوطبة : كانت قرطبة في اوج مجدها . واقتناء الكتب فيها من لوازم الرخاء بل هي كالاتك لا يستغنى عنها في بيت من البيوت . لان الخليفة نفسه كان محباً للعلم مقرّباً للعلماء . وشبَّ اولاده على ذلك وخصوصاً الحكم ولي العهد واخوه عبد الله واقتدى بهم سائر اهل الدولة .

وهذه المكتبة انشأها سعيد الوراق في الربض خارج

١ سعيد الوراق كان صحيح البنية، خفيف العارضين واللحية ، عريض الكتفين، قوي العضل ، كبير الدماغ ، تتجلى الرزانة في جبينه والنكاه في عينيه فان فيها قوة الاقناع، وقد مضى عليه بضع سنين يشغل بالوراقة في قرطبة او يتجر بالكتب.

قرطبة في بيتٍ على ضفة الوادي الكبير «نهر قرطبة» فهي
تطل على قرطبة عن بعد وبينهما النهر . وهي بيت أشبه بنادي
مطالعة منه مستودع كتب او دار نسخ . فكان ادباء قرطبة
من الفقهاء وأهل الدولة يتوافدون اليها للمطالعة والشراء او
النسخ . وكان يشترط ان يكون ذلك في النهار ، فاذا غربت
الشمس أقفل الباب .

المدن التي انشأها العرب

في الجاهلية والاسلام

ان اقدم واشهر المدن التي شيدها العرب في زمني الجاهلية والاسلام والتي انفقوا في سبيل عمرانها الاموال الطائلة هي :
« القرية ^١ » في اليمامة والحِجر ^٢ ومدينة مأرب او سبأ وعين شمس « مصر الجديدة » والحيرة في العراق وجبله الادهمية ^٣ .
اما المدن التي انشأوها في العصر الاسلامي بالمشرق فأول

١ القرية هي حاضرة طسم وجديس ، فيها آثارهم وحصونهم وبتلهم (الواحد بقل وهو بناء مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين . وقد رآه المسلمون في القرن الثالث والرابع . وذكر احدهم انه ادرك بتيلاً طوله خمسمائة ذراع . ولعل زرقاء اليمامة نظرت جيش تبع من احدها . كذا قال الهمداني) .
٢ الحِجر لطسم وجديس ، فيها آثار جميلة . والهجر بلغة أهل اليمن القرية . فاعل حجراً والقرية من اصل واحد . كذا روى ياقوت .
٣ بلدة بناها جبلة بن الايهم آخر ملوك غسان الذي كان اسلم في ايام الخليفة عمر بن الخطاب ثم لحق بقيصر ملك الروم فتنصر واقام عنده وبه يضرب المنل في عزة الملك فيقال اعز ملكاً من جبلة بن الايهم . وجبله هذه بين طرطوس واللاذقية تنسب الى السلطان ابراهيم ادم الزاهد المدفون فيها .

مدينة بناها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب كانت البصرة .
ومدينة الكوفة التي مضرها سعد بن أبي وقاص احد الصحابة
في زمن خلافة عمر المذكور . ومدينة « واسط » التي بناها الحجاج
ابن يوسف الثقفي في ايام خلافة عبد الملك بن مروان وسمها
بهذا الاسم لتوسطها بين البصرة والكوفة . ومدينة « بغداد »
التي بناها أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي وبنى في جانبها
الشرقي « الرصافة » الشهيرة لولده المهدي . ومدينة سُرّ من رأى
« سامراً » وقطربل والمدائن . ناهيك عن الخانات التي كانت
مجتمع الصنائع . والحمامات التي بلغ عددها على عهد المأمون
ابن الرشيد في بغداد فقط ٦٥ الف حمام .

ومن اشهر المدن التي انشأها المسلمون في الاندلس من بلاد
المغرب مدينة « الزهراء » اعجوبة زمانها وفريدة هذه الايام لو
بقيت . فهذه اختطها الملك الناصر بعد ان اكمل ابنته بمدينة
غرناطة . واتخذها منزله وكرسيه له . وانشأ فيها من القصور
والمباني والبساتين ما علا على مباني اجداده . واتخذ فيها مجالات
للوحش فسيحة البناء ومسارح للطيور مظلمة بالشباك . واتخذ
فيها دار الصناعة وآلات للسلاح والحرب والحلى للزينة وغير
ذلك من المهن .

قال بعض المؤرخين : كان الناصر كلفاً بعمارة الارض وتخليد

الآثار الدالة على قوة الملك، فاستقام السلم والعدل في أيامه واتسع نطاق الحضارة وامتد العمران وراحت سوق الزراعة والتجارة ففاضت على الأندلس ينابيع النعم. وكان السبب في بنائه هذه المدينة تجارية كانت له تسمى الزهراء وكان يحبها حباً شديداً فطلبت منه ان يبني مدينةً باسمها تكون خاصة لها ، فبنى أولاً قصر الزهراء المار ذكره ثم بنى الزهراء حوله على بعد ما بين اربعة وخمسة اميال من قرطبة ، والى الشمال منها تحت جبل يسمى جبل العروس . وقطع اشجار الجبل وغرسه تيناً ولوزاً . ولم يكن منظره احسن من منظر الزهراء ولا سيما في زمن الازهار وتفتح الاشجار . وكان طولها على قول ابن خلكان الفين وسبعماية ذراع من الشرق والغرب ، وعرضها الفاً وخمسماية ذراع من الشمال الى الجنوب . ونصب فيها ثلاث مئة سارية من الرخام الفيس وجعل بها اكثر من خمسة عشر الف باب ملبسة بالحديد والنحاس المموه . وقال ابن حيان نقلاً عن ابن وجون الفقيه مسلمة بن عبد الله العريف المهندس العربي الشهير : وكان مبلغ ما ينفق في الزهراء كل يوم الفاً واربعماية بغل . ومن دواب الاكرية الراتبة للخدمة الف بغل . وكان يود الى الزهراء من الجير والحص في كل ثالث من الايام الف ومئة حمل .

وقدر بعضهم النفقة فيها كل عام بثلاث مئة الف دينار مدة
خمسة وعشرين عاماً . وبقي بناؤها اربعين عاماً . اما رخامها
ورخام السواري فبعث عرفاء بتأثيه الى سائر الآفاق يجلبونه
له . فجلبوا الابيض والمجزع من الاندلس ، والوردي والانخضر
من افريقية من اسفاقس وقرطاجنة . ونصب بها حوضاً منقوشاً
مذهباً غريب الشكل غالي القيمة جلبه اليه احمد اليوناني من
القسطنطينية . وحوضاً صغيراً اخضر منقوشاً بتأثيل الانسان
جلبه من الشام . قال المقرئ : ونصبه الناصر في بيت المنام في
مجلسه الشرقي المعروف « بالمؤنس » وجعل عليه اثني عشر تمثالاً
من الذهب الاحمر مرصعة بالدرّ النفيس الغالي مما عمل بدار
الصناعة في قرطبة بصورة اسد الى جانبه غزال والى جانبه تمساح
وفي مقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفي المجنبتين حمامة وشاهين
وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكل ذلك من ذهب
مرصع بالجوهر النفيس ، ويخرج الماء من افواها .

المدن التي نشأها المسلمون بأفريقية

في أيام الخلافة الفاطمية بأفريقية ظهر رجل من ذرية الحسين ابن علي بن ابي طالب يقال له عبيد الله . فهذا أخذ وحبس في خلافة المعتضد بالله العباسي ثم أخرج من محبسه « بدعوى انه هو المهدي الذي سيتسلم الحكم بعد احفاد السفاح العباسي » ومن ثم تكنى هذا الاسير بأبي محمد وتلقب بالمهدي فتبعه مسلمو المغرب قاطبة . فاسس خلافة جديدة للعلويين في بلاد افريقية كان هو اول خلفائها وذلك سنة ٢٩٧ هـ « ٩٠٩ م » وجعل هذا الخليفة دار اقامته اولاً بمدينة يقال لها رِقَادَة وهي بالقرب من مدينة مستحدثة يقال لها القيروان . وقوي امر هذه الدولة بالمغرب و افريقية وجيروا بمذهب الاسماعيلية وامتلكوا ارض مصر مدة طويلة ، فكان اول مشروعات المهدي المذكور بناء مدينة في القيروان سماها « المهديّة » نسبةً له . واختار لهذه المدينة جزيرة متصلة بالبر كصورة كف اتصلت بزند وجعلها دار ملكه واحاط بها سوراً محكماً وجعل لها ابواباً من الحديد وزن كل مصراع منه قنطار .

وكان شروعه في بنائها سنة ٣٠٣ هـ « ٩١٥ م » وأنشأ بالقرب منها في الجبل داراً لإنشاء السفن تَسَعُ مئة سفين . وأقام في أرضها اهراء للطعام ومصانع للماء ، وبنى فيها القصور والدور ، ودوّن الدواوين ، وجبى الاموال ، وبعث العمال الى البلاد . ثم بنى مدينة اخرى في ارض بني كملان من هواة وكان اسمها المسبلة فسمّاها « المحمدية » وحصنها وجعلها مخزناً للاقوات .

ثم لما استولى حفيده المعز لدين الله على بلاد مصر بعد موت كافور الاخشيدي شرع وزيره جوهر ببناء « قاهرة مصر » واسبس مدرستها الكبرى الشهيرة بالجامع الازهر فنقل اليها المعز لدين الله المذكور ما كان في قصره بالمهدية من الاموال والامتعة وسار اليها بعد الشروع في بنائها باربع سنوات واتخذها منزلاً له وحلفائه الى آخر دولتهم .

ثم لما تولى سلطنتها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب تحت الراية العباسية بنى فيها قلعة « الجبل » والبئر المشهورة بها المعروفة ببئر يوسف وعمقها ثلاث مئة قدم ومع ذلك يمكن النزول اليها ولو لمن نزل راكباً على حمار لما فيها من الدرج الدوار .

سلطنة مواكش : وبعد ان انقرضت دولة الفاطميين

استقلت عمال البلاد في اقسام هذه المملكة . فكانت مصر نصيباً للسلطان صلاح الدين الايوبي ، وكذلك بلاد افريقية استقلت بها عمالها ولم يفقد منها الا الجزائر التي استولى عليها الفرنسيون . اما بلاد مراکش فتطلق عليها العرب اسم سلطنة المغرب . وكانت الرئاسة فيهم لقبيلة يقال لها « لمتونة » استولوا على عدة مواقع من بلاد السودان الى ان صار لهم مملكة واسعة وتعاظم امرهم على عهد عبد الرحمن الناصر بالاندلس وعبيد الله المهدي بافريقية . ثم خرجت طائفة من قبيلة لمتونة وهجمت على جماعة من اعدائها فخالفها العدو الى بيوتها ، ولم يكن باقياً بها الا المشايخ والصبيان ، فامروا النساء ان يلبسن ثياب الرجال ويتلثمنن ويحملن السلاح ففعلن ذلك . وسموا من ذلك الوقت « بالملثمين » . ولما استفحل ملكهم قام بالملك عليهم رجل من امراءهم يقال له يوسف بن تاشفين اللمتوني وسمى نفسه امير المسلمين .

مراكش : فاختط هذا الامير مدينة في بلاد افريقية سنة ٤٥٤ هـ « ١٠٦٢م » وهو انه ادار سوراً على مسجد وقرية صغيرة ليجعلها مخزناً لامواله وسلاحه ، وكانت تلك القرية في غابة من الشجر تاوي اليها اللصوص قبل ذلك ، فكان سكان تلك البلاد عندما يرون بها يقول بعضهم لبعض : مرّا كرش ، ومعنى ذلك

في لغتهم « امش مسرعاً » ، فصار هذا اسماً لذلك الموضع وبه
سمت تلك المدينة .

واستمرت هذه المدينة كرسي مملكة للملثمين الى ان زالت
دولتهم وقام بعدها حكام غيرهم الى يومنا هذا .

ويلى مدينة مراکش مدينة « مغادور » وهي فرضة عظيمة .
ومدينة « مكناسة » ويقال لها مكناسة الزيتون ، وهي على
نهر فلفل يقيم بها سلاطين مراکش غالب اوقاتهم . وفيها يقول
بعض الشعراء :

انظر الى مكناسة الزيتون
بين الاباطح والجبال الجون
وكان فلفل بينهن مهتد
يهتز بين تعطف وسكون

حضارة العرب في صنائهم

ازدهرت الصناعة في عهد العرب حتى لقت مدن وقرى عديدة بالنسيج الذي كانت تخرجهُ ببسطها الجميلة واكسيتها الجيدة . واشتهرت مدينة بعلبك بصناعة الثياب والاحرام والمشدات . ودمشق بصنع الخميصة والبرنكات والاقمشة المزركشة بالقصب والتي لا يزال الاوروبيون يدعونها حتى الساعة « بالدامسكو » .

ومما اشتهر به العرب في صنائهم ومنهم :

١ - صناعة السكر التي نقلوها من الهند الى امبراطوريتهم فابتنوا لها المصانع الاولى واسسوا المعامل الكبيرة فتفننوا في اصنافه واستحضروا منها الواناً كثيرة .

٢ - صناعة الورق . وقد اتقنها صناع العرب كثيراً واخذها عنهم الاوروبيون .

٣ - صناعة الزجاج التي كان الحكيم عباس بن فرناس من اوائل العرب في استنباطها . وعرفتها بعض مدن اسبانيا كما عرفت بمصانع الوشي المذهب .

٤ - معامل الفسيفساء التي انشأتها العرب لتزين بها دورها
ومساجدها ومدارسها العامة .

٥ - صياغة الذهب والفضة ، وتنزيلهما على السيوف والخناجر
والمدى . واشتهرت سوريا بعمل الاسلحة في جميع مشارفها
ولهذا دعوا السيوف الدمشقية بالشرقيات .

٦ - مصانع البارود التي نقل عنهم الاوروبيون صناعتها .

٧ - مصانع الساعات . ولعل ساعة الجامع الاموي في
دمشق كانت نموذجاً لها . وقد وصفها ابن جبير وصفاً شائقاً .

٨ - مصانع البكر والأكر والانابيب وبعض آلات الجر
والرفع التي امتاز العرب فيها ، وغيرها كثير من الصنائع التي
اخذها الاوروبيون عن العرب .

فهؤلاء العرب العصاميون الذين نبغوا في ضروب الصناعات
قبلوا فيها قمة المجد بمذاقتهم واجتهادهم قد خلّد لهم التاريخ
اجمل صفحة عن حضارتهم ورقيتهم .